مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (4)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (4) 2014

وَصْفُ القُصورِ في عَصْرِ الطَّوائف
(القيمة الوثائقيّة)

الدكتور عيسى فارس*
ياسر صَيرَفي**

(تاريخ الإيداع 16 / 4 / 2014. قبل للنشر في 7 / 8 / 2014)

□ ملخّص □

تتناول هذه الدراسة قصور ملوك الطوائف التي تعرّضَتْ للوصف من قِبَل الشعراء المُوالين للملوك المُجاورين لقصورِهم، وقد تضمّنَتْ وصفاً للقصور من الخارج ومن ثمَّ وَصْفِ موجوداتِها الدّاخلية التي تنمّ عن الرّفعةِ والبهاء لصاحب القصر، ثمّ تمَّ بيان القيمة الوثائقيّة لظاهرة وصف القصور.

الكلمات المِفتاحيّة: وَصف، القصور، عصر الطّوائف

*أستاذ – قسم اللّغة العربيّة– كليّة الآداب– جامعة تشرين– اللاذقيّة.
**طالب دراسات عليا (ماجستير)– قسم اللغة العربيّة– كليّة الآداب– جامعة تشرين– اللّاذقيّة.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (36) العدد (4)2014
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (36) No. (4) 2014

Description courts in the era of sects (Asser al Tawaif) (Value documentary)

Dr. Issa Fares*
Yasser Sayrafi**

(Received 16 / 4 / 2014. Accepted 7 / 8 / 2014)

□ ABSTRACT □

This study addresses the Tawaif's courts which have been described by poets loyal to kings who are neighboring of their courts, which included a description of the courts from the outside and then describe their assets interior which reflect the greatness and magnificence to the owner of the court, then the value documentary of the courts description phenomenon had represented.

Keywords: -Description, Palaces, Age Sects.

*Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts, Tishreen University, Lattakia, Syria.

**Postgraduate student, Department of Arabic, Faculty of Arts, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مُقدِّمة:

إنَّ دراسةَ شعرِ القصورِ في عصرِ مُلوكِ الطّوائفِ من الدّراسات التي تسلّط الضّوءَ على تلك المرحلةِ من الازدهارِ في التّاريخ الإسلاميّ، والتي كانَتْ بدايةً لانهيارِ الدّولةِ الإسلاميّة العظيمة؛ بسبب سياساتِ المُلوكِ، وقد كانَ للشّعراءِ اتّجاهان من هؤلاءِ المُلوكِ، فمنهم مَنِ انتقدَ المُلوكَ، وآخرون لاذوا بالمُلوكِ في قصورِهم يصفونَها، ويُبدُون ما في داخلِها من إبداعاتٍ في البناءِ والرّسمِ والنّحتِ، لِذا نسعى في هذا البحثِ إلى تسليطِ الضّوءِ على بعضِ هذه الأشعارِ التي تعرّضَتْ لوصفِ القصورِ، ومن ثمَّ بيان القيمةِ الوثائقيّةِ لهذه الأشعارِ، وهذا ما يسوّغ هذه الدّراسةَ؛ لتسليطِ الضّوءِ على تلك المرحلةِ.

أهميّة البحث وأهدافه:

تأتي أهميّةُ هذا البحثِ من كونِه يسلّطُ الضوءَ على تلك الفئةِ التي كانَتْ مُواليةً للمُلوكِ في عصرِ الطّوائفِ، وتُظهرُ انعكاسَ هذه المُوالاةِ _ التي ربّما لم تكنْ دائماً صادقةً_ في أشعارِ هؤلاءِ الشّعراءِ، كما تَظهرُ أهميّتُهُ من كونه يُمكنُ أنْ يُعَدّ وثيقةً تاريخيّةً من المُمكنِ العودةُ إليها لمعرفةِ أخبارِ تلك المرحلةِ من حيث السّياسات وطُرُقِ العمرانِ والحياةِ الدّاخليّةِ في القصرِ.

مَنهجيّة البحث:

يقومُ البحثُ على أساسِ عَرْضِ الأبياتِ التي تمَّ من خلالِها وَصْفُ القصورِ وصفاً مَحضاً، ثمّ التّعريجُ عليها تحليلاً، حتّى الوصول إلى التّوثيقِ التاريخيّ؛ ليكونَ مرآةً تعكسُ لنا صفاتِ تلك المرحلةِ من مراحلِ الحضارةِ الإسلاميّةِ.

1- وصف القصور:

نشطَتِ الحركة الأدبيّة في القرن الخامس الهجريّ ولاسيّما في عصرِ ملوكِ الطّوائفِ بشكلٍ كبيرٍ بعد أنْ حدثَ اهتمامٌ كبيرٌ من حُكّامِ تلك الإماراتِ التي استقلّتْ عن بعضِها بالأدبِ شِعراً ونثراً، وكانَتْ قصورُهم مَغْدقاً لأهلِ العلم والأدب، حتّى إنَّ كثيراً من أهل الشّعر نالُوا عند الملوكِ مراكزَ ساميَةً في القصور، فكانَتْ مَجالسُ القصورِ مَسرَحاً لِقولِ الشِّعرِ ونَقْدِه، أو كانَتْ عِبارةً عن مَجالِسَ للأُنسِ واللّهوِ والإتْيانِ بكلِّ ما هو نادرٌ يُدخِلُ السُّرورَ إلى نفوسِ الحُكّام.

ولا بدَّ من القولِ: إنَّ هناك عاملاً أساسيّاً أدّى إلى نشاطِ الحركةِ الأدبيّةِ في قصورِ حُكّامِ ملوكِ الطّوائفِ، وهو أنَّ بعضَ الأُسَرِ الحاكمةِ أجادَتْ قَرْضَ الشّعرِ وتذوُّقَه كأُسرةِ بني عبّاد في إشبيليةَ، وأسرةِ المُعتصِم بن صمادح في ألمِرْيةَ، فكانُوا أُسراً حاكمةً بالدَّرجة الأولى، ومُجيدةً نَظْمَ الشّعرِ من جهةٍ أخرى، وقد عُرِفَتْ به، أمَّا باقي الممالك الأخرى فقد أجادَ بعضُ حكّامِها نَظْمَ الشّعرِ وفَهْمِهِ، كالمُقتدِر بنِ هود صاحبِ سرقسطةَ، حيثُ غُصَّ بَلَاطُه بعددٍ من أعلامِ الشّعرِ في ذلك الزّمنِ؛ لاهتمامِه بالشّعرِ وأهلِه.[1]

وقد وصفَ الشعراءُ هذه القصورَ من حيث البناءُ الخارجيُّ والدّاخليُّ وزخرفتُها، فتعرّضُوا لِوَصْفِ البَهْوِ والمَجَالِسِ والحمَّامات والسّجون، كمَا وصفُوا كلَّ ما يحيط بها، من الحدائقِ والرّياضِ، وما حوتْهُ من بِرَكٍ ونوافيرَ وتماثيلَ، فكانَتْ مَهمَّتُهم الإلمامُ بوَصْفِ كلِّ ما وقعَتْ عليه أبصارُهم، وفي كلِّ ذلك كانَتْ هناك غايةٌ في نفوسِهم، وهي إرضاءُ أصحابِ هذه القصورِ، والتقرُّبِ منهم ما أمكنَ وذلك بمُجالستِهم ووصفِ قصورِ الحكمِ ومجالسِ الحُكّام.

ولم يكتفِ شعراءُ عصرِ الطوائفِ بوصفِ القصورِ من الخارجِ فقط، بل لامسُوا المَوجوداتِ؛ ربَّما لأنَّ فيها ما يلفت النّظر، لكنَّ الغايةَ الأكبرَ إرضاءُ أصحابِها الملوك والأمراء؛ ولاسيّما أنَّ هؤلاء تسابقُوا في التّفاخر بالقصور

ومُحتوياتها، فسلَّطَ الشّعراءُ الضّوءَ على الأثاث، والأواني، والتُّحف، والشّموع، والأدوات الحربيّة، والثّياب، والإصطبلات وغيرها.

أ- البناء الخارجي للقصور:

تعرَّضَ شعراءُ عصرِ ملوكِ الطّوائفِ في وصف قصور حكّامهم إلى البناء الخارجيّ من حيث الجمال والبناء والقوّة والعُلوّ والفخامة، فاعتبروها المعالمَ الحضاريّةَ في المدينةِ الأندلسيَّة، فقد وصف (ابن وهبون) أحدَ قصورِ المُعتمِد بن عبّاد في طُلَيطلة، المَعروف /بالزّاهي/، فأشار إلى بنائِه الخارجيّ وقوّتِه، فقال:[2] /الوافر/

مَحَلٌّ ألبس الدُّنيا جمالاً وإن فضحَ المقاصِرَ والخِلالا
وللزَّاهي الكمالُ سَنَاً وحُسْناً كما وَسِعَ الجلالةَ والكمَالا
يُحاطُ بشكله عرضاً وطولاً ولكن لا يُحاطُ به جَمالا
تواصلتِ المحاسنُ فيه شتَّى فَوَفدُ اللّحظِ ينتقلُ انتقالا
وَقورٌ مِثْلُ رُكنِ الطَّودِ ثَبْتٌ ومُختالٌ من الحسنِ اختيالا
تَدَافعَ من جوانبِه ائتلافاً فكادَ المُستبينُ يقولُ مالَا
فَلو أدنَوا حَرام السِّحْرِ مِنْه لأضحى يعبُدُ السحرَ الحلالا
سَمَاءٌ ترتمي بعُبابِ بحرٍ كأنَّ بها إكاماً أو تِلالا
فقد كادَ اللّبيبُ يُعالُ مِنْهُ ويحْسبُ أنَّ بحرَ الجوِّ سالا
فَمَا أبْقى شِهاباً لم يُصوَّبْ ولاشَمْساً تُنيرُ ولا هِلالا

يصف ابن وهبون بإحساسه المُرهَفِ هذا القصرَ جاعِلاً منه شُعْلةً من الجمال، ذلك الجمال الذي بدا بصورةٍ مليئةٍ بالحياة والتي جمَّلتِ المكانَ الذي هو فيه، وقد امتدَّ أثرُ جمالِه ليعمَّ الدُّنيا بِأَسْرِها، وقد تميَّز جمالُ القصرِ كمَا وصَفَهُ (ابنُ وَهبون) بأنَّه جمالٌ مُتلاحِقٌ فكلّما شاهدَ الرّائي جُزءاً أُعجِبَ به، وهكذا حالُهُ إلى أنْ يرى عُمومَ القصرِ، ومن خلالِ هذه الأبياتِ يسعى لأنْ يرسمَ شكلَهُ الخارجيَّ الهَندسيَّ والذي بدا مُستطيلاً، وهذا مُتجلٍّ من خلال ذِكْرِ البُعدَين (الطولِ والعرضِ)، أمَّا قوّةُ القصرِ فتبدو من خلال تشبيهِ القَصْرِ بالجبلِ الرّاسخِ، وأمامَ هذه القوّةِ العظيمةِ يظهرُ السّحرُ والجَمَالُ؛ حيثُ شبّهَهُ بالمرأةِ التي تختالُ جمالاً، وبهذا جمعَ(ابن وهبون) بين كفّتَي القوّةِ والجَمَالِ.

وكانَ (ابنُ حمديس) في طليعةِ شعراءِ وَصْفِ القصورِ في عصرِ ملوكِ الطّوائفِ، وقد امتازَ وَصْفُهُ بالدِّقَّة والجَمَالِ حتّى إنَّ المُتلقّي يشعرُ وكأنَّه يقفُ مع ابن حمديس أمامَ القصر، فقد وصف داراً بناها المُعتمِدُ بنُ عبَّاد، فقال:[3] /البحر الطّويل/

و يا حبَّذا دارٌ يدُ اللهِ مسَّحَتْ عليها بتجديدِ البقاءِ فما تَبلى
مُقدَّسةٌ لو أنَّ موسى كليمُهُ مشى قُدُماً في أرضِها خَلَعَ النَّعلا
نَسيْتُ به إيوانَ كِسرى لأنَّه أراني له مَوْلىً من الفضلِ لا مِثْلا
كأنَّ سُليمانَ بنَ داوود لم تُبَحْ مَخافتُه للجِنِّ في شَيْدِه مَهْلا
كأنَّ عيونَ السِّحرِ نافذةٌ له على كلِّ بانٍ غايةً منه أو فَضْلا
فجاء مكانَ القولِ نبعثُ وَصفَهُ رقيقاً، وأُذنُ الدَّهرِ تسمعُه جَذْلَى

لقد أسدلَ ابنُ حمديس على قصرِ المُعتمِدِ صِفَةَ الخُلودِ، طالَما أنَّ المَشيئةَ الإلهيّةَ قد أحاطَتْ به، وأرادَتْ له البقاءَ والخُلودَ، وقد رفعَهُ بذلك إلى درجةٍ عظيمةٍ من القَداسةِ والطّهرِ، لذا فمن واجبِ زائريهِ أنْ يخلعوا نِعالَهم تعظيماً، وفي هذا مُبالغةٌ في التَّعظيمِ والتَّقديسِ الذي يُضرَبُ به المكانُ ويُقصَدُ صاحبُه، وفيه تضمينٌ للتَّصويرِ القرآنيِّ من قوله تعالى:" **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**"[4]حيث أمر اللهُ سبحانه وتعالى سيّدَنا موسى عليه السلام أنْ يخلعَ نعلَيه عندما وصل الوادي المُقدَّس طُوَى، فهو يجعل قُدسيّةَ القصرِ وعظمتَه كقدسيّةِ جبلِ الطّورِ وعظمتِه، ثمّ يتابعُ ابنُ حمديس وَصْفَه لجمالِ القصرِ وقيمتِه من خلالِ الُّلجوءِ إلى التّناص، فقد جمعَ الكثيرَ من مخزونِهِ الدِّينيّ والتّاريخيّ لصالحِ نَصّهِ الشّعريّ، فنسِيَ إيوانَ كِسرى المعروفِ بضخامتِه وعَظمتِه أمامَ جَمَالِ هذا القصرِ وبديعِ بنائِه، طالَما أنَّه لا مثيلَ له في هذه الدّنيا، ولعلَّ المُبالغةَ تبدو قويَّةً عندما استعانَ بذِكْرِ النبيِّ سُليمانَ عليه السّلامُ في حِوارٍ مُتخيَّلٍ له مع الجِنِّ مُبيِّنَاً لهم أنَّ عظمةَ هذا القصرِ وجمالَه يفوقان قصورَهم التي شيَّدوها.

وها هو (ابن الحدّادِ) يصفُ قصرَ المُعتصِمِ بن صمادح، فيُظهِرُ فخامتَه وجمالَه وما يحيطُ به من رِياضٍ زُرِعَتْ فيها كلُّ أنواعِ الأشجارِ والأزهارِ ذاتِ الرّائحةِ العَطِرةِ التي تملأُ القصرَ كلَّه، ثم يشيرُ إلى اعتدالِ جوِّه، وسببُ ذلك المياهُ والبِركُ المَوجودةُ فيه، ثم يصفُ البِنَاء الخارجيّ بعظمتِه وقوَّتِه وإتقانِ صُنعِهِ، فيقول:[5] /البحر الكامل/

تتعاقبُ الأعْصارُ فيه وجوُّهُ	أبداً به آذارُ أو تشرينُ
أو لو بدا للرومِ مُعجزُ صنعِهِ	أبدى السجودَ إليه قسطنطينُ
رأسٌ بظهر النونِ إلا أنَّه	سامٍ وقبَّتُه بحيثُ النونُ
قصرٌ تبيَّنت القصور قصورها	عنه وفضلُ الأفضلينَ يبينُ
شمختْ فلا تحنى سواريها لها	كلا ولا تُرمى بها فتبينُ

إنّ المُبالغةَ في الشّعرِ لها أثرُها في عمليّةِ التّأثيرِ بالمُتلقّي، وجَذْبِه بقوّةٍ لإقناعِه بالموضوع المَطروحِ، طالَما أنَّ الصّلةَ بينَ المبالغةِ وشرْحِ المعنى وثيقةٌ، فالمُبالغةُ وسيلةٌ من وسائلِ شَرْحِ المعنى وتوضيحِه ولاسيَّما عندما يُرادُ بها تمثيلُ المعنى أو تأكيدُ بعضِ عناصرِه الهامَّة؛ فالقَصدُ من المبالغةِ هنا التّأكيد على جمالِ القصرِ، ودَفْعِ المتلقّي إلى تخيُّله أمامه.[6]

ويصف (ابن زيدون) في قصيدة له بعضَ قصور المُعتمِد، فقد سعى لِوصفِها وصفاً مكانيّاً وجغرافيّاً، وصوَّر ملامحَها الجماليّة، وروائعَها الفنّيّة، فقال:[7] /البحر الكامل/

أمَّا الثُّريَّا فالثُّريَّا نَصْبةً	وإفادةً وأناقةً وجمالاً
قد شاقَها الإغبابُ حتَّى إنَّها	لو تستطيعُ سَرَتْ إليك خَيَالاً
رفّهْ وُرُودَكَها لِتغنَم راحةً	وأطلْ مزارَكَها لتنعَمَ بالا
وتمثَّلِ القصرَ المُبارَكَ وَجْنَةً	قد وُسِّطَتْ فيها الثُّريَّا خالا
وأدِرْ هناك من المُدامِ أتمِّها	أَرَجَاً زكَا وأشفَّها جِربَالا
قصرٌ يقرُّ العينَ منه مَصْنَعٌ	بَهْجُ الجوانِبِ لو مشى لاختالا
لا زِلْتَ تفترشُ السُّرورَ حَدائِقَاً	فيه وتلتحِفُ النَّعيمَ ظِلالا

يوجِّه ابن زيدون في هذه الأبيات دعوةً للمُعتمِد ليقيمَ أطولَ ما يمكن في قصرَيه (المُبارَك والثُّريَّا) مُشبِّهاً قصر(المُبارَك) بخدِّ فتاةٍ جميلةٍ فاتنةٍ، وأجملُ ما فيه تلك الشّامة التي تتوسَّطُه، وقد قصد بذلك قصرَ الثُّريَّا، فهو بهذه الصورة الجميلة يحدّد موقع قصر(الثريَّا) حيث يقعُ وسط قصرِ(المُبارَك)، ثم يعقدُ مُقارنةً بين جَمالِ القصرَين، فأحدُهما تحيطُ به الحدائقُ التي حوتْ أنواعاً شتَّى من الورودِ العَطِرَةِ التي جعلَتْ مناخَ هذا القصرِ رطباً مُعتدِلاً، والآخرُ فيه بَهْوٌ كبيرٌ امتدَّتْ أطرافُه التي نُقِشَتْ عليها صورٌ لسيِّداتٍ جميلاتٍ تفاخرْنَ بمِشيتهِنَّ.

وكانَ(ابن درَّاج القسطلي) من الشُّعراءِ الذين مزجُوا بينَ وَصْفِ الطّبيعةِ، وَوَصْفِهِم قُصورَ حكَّامِهم، فقد أثارَه حُلولُ الرّبيعِ الذي تفتَّحَتْ فيه الأزهارُ، فها هو يصفُ قصرَ أحدِ ممدوحيه، جاعِلاً منه قصراً مَبنيَّاً من السَّوسنِ الذي بناهُ الرَّبيعُ، فيقول:[8] /البحر الكامل/

لِمعاقلٍ[9]من سَوْسَنٍ قد شَيَّدتْ أيدي الربيعِ بناءَها فوقَ القُضُبْ
شُرُفاتُها من فِضَّةٍ وحُماتُها حولَ الأميرِ لهم سُيوفٌ من ذَهَبْ

لقد استعانَ الشّاعرُ بالطبيعةِ ليصفَ القصرَ، فقد خُيِّل إليه أنَّ القصرَ مَبنيٌّ من السَّوسنِ، وهذا مَرجِعُه لروائحِ الرِّياضِ التي تحيطُ بالقصرِ، وبعدَ أنْ وصفَ الكُلَّ استوقفَه جُزءٌ أَلَا وهو الشُّرفاتُ المَبنيَّةُ من الفِضَّةِ والمُخَاطَةُ بأطرافٍ ذهبيَّةٍ، مُستعيناً بصورةٍ تشبيهيَّةٍ بارعةٍ جاعلاً من هذه الشُّرفاتِ أميراً، ومن إطارِها جنوداً وحُماةً يحمونَه، ولعلَّ الكناية تظهر بقوّةٍ في قولِه(من ذهب)، فالكنايةُ هنا عن كثرةِ المالِ وبراعةِ الفَنِّ، وفيه عَكْسٌ لحياةِ البذخِ المُبالَغِ فيها لدى الكثيرِ من الملوكِ والأمراءِ في ذلك العصرِ، وقد استطاعَ الشّاعرُ هنا أنْ يربطَ بينَ الطبيعةِ الصَّامتةِ وقصرِ المَمدوحِ من خلالِ الرَّبطِ بينَ السّوسنِ وعَبَقِه وبينَ عَبَقِ القصرِ ورائحتِه العَطِرة.

ب- البناء الدّاخلي للقصور من حيث:/البهو، المجالس، الحمَّام/

لم يكتفِ الشّعراءُ بِوصفِ قشورِ القُصورِ بل تجرّعُوا من باطنِها الكثيرَ، فبعدَ أنْ وصفوا بناءَها الخارجيّ، عمدوا إلى وصفِها من الدّاخل حيث(البهو والمجلس والحمَّام...)، وقد استطاعوا بذلك أنْ ينقلوا لنا وللإنسانيّة جَمعاءَ الكثيرَ عن فنِّ العَمَارةِ الأندلسيّة في عصرِ الطّوائف، وقد تضمّن البناءُ الدّاخليُّ ما يلي:

1- البهو:

بعد أنْ وصف (ابن وهبون) قصر الزّاهي من الخارج، وَقَعَ نظرُه على البهو ففُتِنَ به، فقد زُخرِفَتْ جُدرانُه بزخارفَ نباتيّةٍ تشابكَتْ لدرجةِ الغُموضِ، وقد تعدَّدَتْ ألوانُها فبدَتْ أشْبَهَ بالوَشْيِ، ثمَّ لا يتوانى عن وصفِ السَّقفِ المُخرَّمِ الذي تداخلَتْ فيه الحلقاتُ بهندسيَّةٍ مُبدِعةٍ في الجمالِ والرَّوعةِ، فها هو يصفُ بَهْوَ قصر(الزّاهي) من الدّاخل، فيقول:[10] /البحر الوافر/

وللبهْوِ البَهيِّ سماءُ نورٍ تمثَّلَ شكلُها حَلَقَاً دِخَالا
مُزخرَفةٌ كأنَّ الوَشْيَ ألقى عليها من طرائفِه خيالا
وما خِلْتُ الهواءَ يكونُ رَوْضَاً ولا سقفاً يكون كذاك آلا

2-المَجَالِس:

عمدَ الكثيرُ من الشّعراءِ لوصفِ مجالسِ القصورِ عندَ الحكّامِ، حيثُ وصفُوا جدرانَها المُزخرفةَ، وأرضيّتِها المرصوفةِ بأثمنِ أنواعِ المَرَامِرِ والرُّخامِ والفُسَيْفُساءِ، فها هو(أبو الحسن غلام البكري) يصفُ أحدَ مجالسِ القصور، فيقول:[11] /البحر المُتقارب/

أَقَرنُ الغزالة أم مَعْقِلُ	يكادُ الجمادُ به يعقِلُ
وفي صحن ساحتهِ مجلسٌ	شَرُودُ اللِّحاظِ به يُعْقَلُ
كأنَّ تماثيلَ جدرانِه	على من يقابلُها تُقبِلُ
تبينُ بفضلِ الخطاب الفصيحِ	لدَيكَ وإنْ أُخرِسَ المِقْوَلُ
وترنو وما راقَها مَنظرٌ	وتُصغي ومارابَها أزْمَلُ
تودُّ الكواكبُ لو أنَّه	لها يَعْتلي أولَهُ تَنزِلُ
ولو ظفرتْ بالمنى لم تزَلْ	حِفافَيه تَطلُعُ أوْ تأفُلُ
كأنَّ أعاليَهُ روضةٌ	ومَرْمَرَ أسفلَيه جَدْوَلُ
ينِمُّ سناه بأسرارِه	فتعلَمُ عينُك ما تجهلُ
ويجري عليه فِرِنْدُ الحُبُورِ	فكلُّ كئيبٍ فيه يَجْذَلُ
وتكرعُ في ماءِ لألائِهِ	ظِماءُ العُيونِ ولا تَنهَلُ
فلو أنَّ زهرتَه للهجيرِ	بدا وردُه وشَدَا البُلْبُلُ

يبدأ الشّاعرُ أبياتَه بدهشةٍ استحوذَتْ على نَفْسِه وفِكْرِه فانعكسَتْ في أبياتِه، حيثُ بثَّ الأبياتَ حِبراً من دهشته وما يجولُ في مُخيّلتِه من صُوَرٍ حيَّةٍ للمكانِ، سببُها الأثرُ العميقُ الذي تركَه جمالُ هذا القصرِ في نَفْسِه، فبدأَ بوصفِ الدّاخلِ الذي تضمَّن ساحةً دائريَّةً، تُفضي إلى مجلسٍ انصبَّتْ فيه أناقةُ بانِيْهِ ومُزخرفِه، حيث قامَ الشّاعرُ بتشخيصِ التّصاويرِ التي نُقِشَتْ على الجدرانِ ليجعلَها تنبضُ بالحياةِ، لأنَّ النّاظرَ إليها يشعرُ وكأنَّها حقيقةٌ، وهذا يدلُّ على الدِّقَّةِ في الزخرفةِ والنَّقشِ والرَّسمِ، كما أنَّه حَوَى سقفاً لُوِّنَتْ زخارفُه بأشكالٍ نباتيّةٍ وهندسيّةٍ مُتشابكةٍ، وقد رُصِفَتْ الأرضيَّةُ بمَرْمَرٍ أبيضَ لامعٍ، وقد بُنِيَ داخلَه حوضٌ من الماء الجاري الصّافي فانعكسَ صفاؤُه على أرجاء المَجلسِ كافَّةً، فأعطاها جمالاً وبهاءً ورَوْنقاً، مِمَّا يعكسُ مَدى الفنِّ المِعماريّ الهندسيّ الذي اشتُهِر به ذاك العصرُ.

3- وصف الحمَّام:

كانَتِ الحمَّاماتُ وما تزال أحدَ مظاهر الرُّقيِّ والحضارةِ، وقد انتشرَ زمنَ الطّوائفِ نوعان من الحمَّامات (العامّةُ، والخاصَّةُ) في المُدُنِ والقُرى الأندلسيّةِ، وهذا مَرْجِعُه لاهتمامِهم بالنَّظافةِ، التي دعتْ إليها تعاليمُ الدّينِ الإسلاميِّ، لذلك فقد حرِصَ الحكّامُ وأبناءُ الطّبقةِ الخاصّةِ على بناءِ الحمَّاماتِ في قصورِهم، أمَّا عامّةُ الشّعبِ فقد كانُوا يقصدون الحمَّاماتِ العامَّةِ المُنتشِرةِ في الأحياءِ الشّعبيّةِ، وقد اهتمَّ المُلوكُ والحُكّامُ بجمالِ بناءِ هذه الحمَّاماتِ؛ حيثُ كانَتْ تُقامُ فيها مجالسُ الأُنسِ واللّهوِ والشّرابِ، لذا فقد شجّعَ الحُكّامُ الشّعراءَ على وَصْفِها، وتَلَمُّسِ مَواطنِ الجَمَالِ فيها،[12] فها هو (ابن زيدون) يصفُ حمّاماً رُخاميّاً في قصر المُعتضِد، فيقول:[13] /البحر الخفيف/

جاورْتُ حَمَّةً مُشيَّدةَ المَبْ	نى لِبرقِ الرُّخامِ فيه وَميضُ
مَرْمَرٌ أوقدَ الفِرِنْدَ عليه	سَلْسَلٌ بحرُه الزُّلالُ يَفيضُ

يصفُ ابنُ زيدون غرفةَ النّارِ في الحمَّامِ، والتي كانَتْ مُشيَّدةً برخامٍ أبيضَ ناصعٍ ذي أرضيَّةٍ من المَرْمَرِ، مُشبِّهاً التِمَاعَ الماءِ_وهو يجري فوقَه_ كلَمعانِ الفِرِنْدِ بلونِه الأبيض.

ج- حدائق القصور:

كانَتِ الحدائقُ التي تحيطُ بالقصورِ تحوي على أنواعٍ شتّى من الأشجارِ والأزهارِ والرّياحين، ممَّا دفعَ الشُّعراءَ المُوالين للقصور إلى وصفِها، حتّى إنَّ وَصْفَهم لها أدّى إلى ازدهارِ فنّ النَّوريات في الشعرِ الأندلسيِّ الذي غدا ظاهرةً قائمةً بذاتِها، وكلُّ هذا مَرْجِعُه إلى جَمالِ الطبيعةِ الأندلسيَّةِ، لِذا كان الحُكَّامُ يشجّعونَ الشعراءَ على النّظمِ فيها، ولعلَّ هذا ما يفسِّرُ تشييدَ الحُكّامِ لقصورِهم وَسْطَ الحدائقِ الخضراءِ، وقد كانتِ الأشجارُ التي زُرِعَتْ في حدائقِ القصورِ بشكلٍ كبيرٍ الأشجارَ المُثمِرةَ التي لها نُورٌ قبلَ أنْ تصبحَ ثِماراً في فصلِ الرّبيعِ؛ لتضيفَ إلى جمالِ القصرِ جمالاً طبيعيًّاً، ومنها نَوْرُ اللّوزِ والرّمّانِ والتُّفّاحِ والكرزِ وغيرِها،[14] وها هو(ابن زيدون) يصف حديقة قصرِ المُعتضِد بن عبَّاد، فيقول:[15] /البحر الخفيف/

غَمَرَتْني لكَ الأيادي البِيْضُ نَشَبٌ وافِرٌ وجاهٌ عريضُ
بوَّأَتْني نُعماكَ جنَّةَ عَدْنٍ جالَ في وَصْفِها فَضَلَّ القَريضُ
مُجْتَنى مُدُنٍ وظِلٌّ بَرُودٌ ونسيمٌ يشفي النُّفوسَ مَريضُ
ومياهٌ قد أَخْجَلَ الوُرْدَ أنْ عا رضَ تَذْهيبَهُ لها تَفْضِيْضُ

يصوِّرُ الشاعرُ حديقةَ القصرِ على أنَّها جنَّةُ عَدْنٍ لِجمالِها وسِحْرِها، فقد تنوَّعَت فيها الأشجارُ والزهورُ والرّياحينُ والورودُ المُعطَّرةُ، وزادَتِ المياهُ هذا الجمالَ جمالاً؛ وذلك من خلالِ توزُّعِها في أنحاءِ المكانِ، وأمامَ هذه الرَّوعةِ وهذا البهاءِ يعجزُ الشَّاعر عن الوصف.

كما تعرَّض(ابن وهبون)لوصفِ حديقة قصر(الزّاهي)، فقال:[16] /البحر الوافر/

وأوصى بالرَّياحينِ اغتِرَاساً هُمامٌ طالَمَا اغترسَ الرِّجالَا
وكانَ الغَرسُ والأثْمارُ وَقْفاً لِمَنْ جعلَ النَّدى والوعدَ حالا
وقامَتْ يومَ قمْنا مُنشِداتٍ فغصَّتْ من رويَّتِنا ارتجالا

يصف (ابن وهبون) الحديقةَ التي غلبَ فيها وجودُ الرّياحينَ بلونِها الجميلِ، ورائحتِها العَطِرةِ، فهو يهتمُّ بجمالِها كاهتمامِه بصناعةِ الرّجالِ الأبطالِ، ثمّ يشيرُ إلى الأشجارِ الأخرى المِعطاء والتي تتمُّ عن عطاءِ حاكمِها.

د- البِرك والتماثيل:

لقد امتازَتْ قصورُ الملوكِ ومجالسُهم في عصرِ الطوائفِ بألوانٍ شتَّى من الحُسْنِ والجمالِ، حتى إنَّ أصحابَها بالغُوا في تزيينِها وتوشيتِها، ومن مظاهرِ هذه الزّينةِ إقامةُ التّماثيلِ المُعبِّرةِ عن صورِ الحيوانِ والإنسانِ، وقد زيّنوا مجالسَهم بها، وكانَتْ هذه التماثيل تُنصَبُ حولَ بِرَكِ القصورِ ونوافيرِها، فكانَ الماءُ يجري من جوفِ تلك التماثيلِ، فها هو الشاعرَ(ابن وهبون) يصفُ قصرَ(الزّاهي) للمُعتمِدِ بن عبّاد، حيث يصفُ بركةَ القصرِ وما يحيطُ بها من تماثيلَ، فيقول:[17] /البحر الوافر/

بَلَى حقَّقْتُ أنَّ النارَ كانَتْ له ظِئراً وعنصرُه زُلالا
فلم أَعدِلْ بجامدِه مُذاباً ولم أنكرْ لندوتِه اشتِعَالا

وكلُّ مُصوَّرٍ حَيٍّ جَمَادٌ ... تُبيَّنُ فيه زَهْواً أو دَلَالَا
له عَمَلٌ وليسَ له حَرَاكٌ ... وإفهامٌ وما أدَّى مَقالا
ويُفرِغُ فيه مثلَ النَّصْلِ بِدْعٌ ... من الأفيالِ لا يشكو مِلالا
رعى رَطْبَ اللُّجينِ فجاءَ صَلْداً ... وَ قَاحاً قلَّمَا يخشى هُزالا
كأنَّ به على الحيوانِ عَتْباً ... فلم يرفعْ لرؤيتِها قُذالا

يصوّرُ الشّاعرُ ما يحيطُ بهذه البركةِ من تماثيلَ، ولعلَّ أبرزَها تمثالُ الفيلِ الضّخمِ المصنوعِ من الفِضّةِ الخالصةِ، وهو يكرعُ الماءَ من خرطومِه بشكلٍ مُستمرٍّ دونَ توقُّفٍ أو ضَجَرٍ في هذا العملِ، ثمَّ يبيّن هيئةَ نَصْبِهِ لرأسِهِ نحوَ أسفلِ البِركةِ، وكأنَّ بينَه وبينَ الحيواناتِ التي حولَه خصومةٌ، فهو لا يلتفتُ إليها، وفي هذا توظيفٌ لعنصرِ الأنسَنةِ.

وقد استحوذَ سِحْرُ تلك البركة على مُخيّلةِ العديدِ من الشّعراءِ، فها هو(أبو بكر بن الملح) يُدهَشُ بمنظرِ الماءِ وهو يخرجُ من خرطومِ الفيلِ الفضّيِّ، وقد أُوقِدَتْ شمعتان على جانبَيه، فقال مُرتجِلاً أمام المُعتمِد بن عبّاد:[18] /البحر البسيط/

كأنَّما النارُ عند الشَّمعتَين سَنَاً ... والماءُ من نُفُذِ الأنبوبِ ينسكبُ
غمامةٌ تحتَ جُنحِ الليل هامعةٌ ... في جانبَيها جناحُ البرقِ يضطربُ

لجأَ (أبو بكر) إلى المزجِ بينَ وَصْفِ الشَّمعتَين والماءِ في خرطومِ الفيلِ المُتوجِّهِ نحوَ البِركةِ دونَ انقطاعٍ، وبينَ الظواهرِ الطبيعيّةِ في صورةٍ تمثيليّةٍ بارعةِ الجمالِ جاعلاً في شعرِه مقابلةً بينَ صورةٍ حاضرةٍ أمامَه، وصورةٍ كونيَّةٍ مُتخيّلةٍ(ضوء الشمعتَين والبرق)و(البركة والغمامة)، فكانَ لَمَعانُ البرقِ كضوءِ الشّمعتَينِ، وكانَ صوتُ البرقِ كصوتِ خروجِ الماءِ من خُرطومِ الفيلِ.

وها هو(أبو بكر) يصوّرُ تدفّقَ الماءِ من خُرطومِ الفيلِ، فيقول:[19] /البحر الطويل/

وأنبوبِ ماءٍ نارين ضُمِّنا ... هوىً لكؤوس الراحِ تحت الغياهبِ
كأنَّ اندفاع الماءِ بالماءِ حيَّةٌ ... يُحرِّكها بالليلِ لمعُ الحُباحِبِ

اعتمدَ الشاعرُ على التّجسيمِ في عرضِ صورتِه، فهو يشبِّه تدفُّقَ الماءِ من خرطومِ الفيلِ بالأفعى التي تتحرّكُ باللّيلِ مُعتمِدةً على ضوءِ الحَبَاحِبِ، وهنا اعتمدَ على اللّونِ والحركةِ؛ فاللّونُ الأصفر بدا في لفظةِ النّارِ، واللّونُ الأحمرُ في كؤوسِ الرّاحِ، واللّونُ الأسودُ في لَفظةِ اللّيلِ، أمَّا الحركةُ فقد ظهرَتْ من خلالِ حركةِ ضوءِ الشّمعتَينِ، واندفاعِ الماءِ، وحركةِ الأفعى، ممَّا أعطى الصّورةَ الشعريّةَ صفةَ الحياةِ.

هـ- موجودات القصور:

لم يكتفِ شعراءُ عصرِ الطوائفِ بوصفِ قصورِ الحُكّامِ، بل شملَ وَصْفُهم ما تحتويه من مظاهرِ الحياةِ الحضاريّةِ، والمَبَاهجِ العمرانيّةِ التي كانَتْ تزخرُ بها تلك القصورُ، فقد زخرَتْ قصورُ ملوكِ الطوائفِ بأغربِ الموجوداتِ وأجملِها، حيثُ صُنِعَتْ من أجودِ الموادِ (كالذهب والفضة والرّخام والزّجاج والنّسيج...)، وقد اتَّسمَتْ صناعتُها بالدّقّةِ والإتقانِ، فكانَتْ هذه الموجوداتُ للتّمتُّعِ بمنظرِها، إضافةً لكونِها أداةً للتَّفاخرِ أمامَ الأقرانِ من حكّامِ هذا العصرِ.[20]

إنَّ وَصْفَ موجوداتِ القصورِ ليسَ بجديدٍ في الشّعرِ العربيِّ، فقد عرفَه الأدبُ العربيُّ منذُ القرنِ الثاني الهجريّ، وقد زادَ في انتشارِ هذه الموجوداتِ بكثرةِ تَوَافُرُ الثّروةِ الماديّةِ، والغِنى الفاحشِ بينَ أفرادِ الطبقةِ الحاكمةِ الذين توجَّهوا في حياتِهم إلى التّرفِ المُبالَغِ فيه، فهمَّ الشّعراءُ بِوَصْفِ قصورِ الحكّامِ وكلِّ ما احتوتْ عليه من المظاهرِ الحضاريّةِ والماديّةِ، لهذا شجَّعَ الحكّامُ شعراءَهم على وَصْفِها في أشعارِهم، تخليداً لِمَا حوَتْهُ هذه القصورُ من نَفيسٍ وغريبٍ وعجيبٍ.[21]

ومن الأمورِ التي تعرّضَ لها الشُّعراءُ من موجوداتِ القصورِ(الفَرش)، فقد وصفوا ما تحويه هذه القصورُ من فَرشٍ وألوانِه مُقدّمين أروعَ الصُّورِ والتَّشابيهِ، فها هو(الجزّار السّرقسطي) يكتبُ قصيدةً إلى الخليفةِ(زهير العامريّ) عندَ احتفالِه بعروسِه:[22] /بحر الرّجز/

وكفاك تشريفاً وفخراً أن تُرى بالجعفريِّ مُؤهَّلاً لِبِنَاءِ
قصرٌ غدا فيه السُّرورُ مُعرِّساً يغشى العيونَ بساطعِ اللّألاءِ
تطأ الدِّمقسَ بأرضِه أقدامُنا عِوَضاً من الآجُرِ والبَوْغَاءِ
ونرى نمارقَ صورةٍ مَصفوفةً مَوْشِيَّةَ الأقطارِ والأرجاءِ
من أبيضٍ في أحمرٍ قد أشبها صَلَفَ الغُواةِ وخجلةَ العَذراءِ
أرضٌ دحاها حُسْنها من سُنْدُسٍ مُتهلِّلٍ كالرَّوضةِ الغَنَّاءِ
بُنِيَتْ على أرضِ الدِّمَقْسِ سُتورُه من خالصِ العِقْيانِ خيرُ سماءِ
لولا تناهي حُسنِهِ لم تختلفْ أنَّا حلَلْنا منه في صَنْعاءِ

لعلَّ فرحةَ الزّفافِ أضفَتْ على الأبياتِ فرحةً وبهجةً، حيث يصف الجزار ذلك القصر مُفضّلاً إيَّاه على قصرِ الجعفريّ(وهو أحد قصور المُتوكّل)؛ لأنَّ أرضيّتَه قد فُرِشَتْ بالسُّجادِ المصنوعِ من الحريرِ الأخضرِ الطّبيعيِّ، وقد تداخلَتْ ألوانٌ عِدَّة في نَسْجِها؛ لِذا فقد صوَّرَها بالرّياضِ الغنَّاءِ، ثمَّ يشيرُ إلى دخولِ خيوطٍ من الذَّهبِ الخالصِ في نَسْجِها جميعِها، وقد زُيِّنَتْ هذه الوسائدُ بألوانٍ تجذبُ العيونَ، فقد تداخلَ فيها الألوانُ، وقد عمدَ إلى أَنْسَنَةِ اللّونِ الأحمرِ والذي جعلَ منه فتاةً خَجولةً احمرَّتْ وَجْنَتَاهَا عندَما نظرَ إليها الرّجالُ، كما اقتبسَ من القرآنِ الكريمِ قولَه تعالى: "**ونَمَارِقُ مَصْفُوْفَةٌ**"[23] للدّلالةِ على كثرةِ هذه الوسائدِ والذي يدلُّ على الضّيافة.

ومن الأشياءِ التي وُصِفَتْ من موجوداتِ القصورِ الأواني، فقد صُنِعَتْ من أغلى الموادِّ ثمناً وأجملِها (كالذّهبِ والفضّةِ والبلّورِ)، فهي تُوضَعُ في ذاك الوقتِ خِصِّيصاً للطّبقةِ الحاكمةِ، فها هو(ابن عمّار) يصفُ طبقاً من الفضّةِ مُذهَّب الباطن، فيقول:[24] /البحر الخفيف/

وسماءٍ من الغِنى قد أسالَتْ ذهباً في قرارةٍ من لُجَينِ
فاجتَنَتْ حولَها العيونُ بلُطفٍ زَهَرَ الحُسْنِ من بَنَانِ اليدَينِ

لقد جذبَ جمالُ الطّبقَ الفضّيّ المُذهّبَ مُخيّلةَ الشّاعرِ التي أعطَتْ صورةً غيرَ اعتياديّةٍ، فقد جعلَ السّماءَ تمطرُ ذهباً تجمَّعَ في هذا الطبقِ، وفيه دلالةٌ على كمّيّةِ الذَّهبِ الوافيةِ فيه، وهذا أعطى الطّبقَ جمالاً جعلَ الأصابعَ تشيرُ إليه.

كما تطرّقَ الشعراءُ لوصفِ إبريقِ الخَمْرةِ وكأسِها، فقد شاعَ في هذا العصرِ احتساءُ الحكّامِ الخَمْرةَ في مجالسِ أُنسِهم ولَهْوِهم التي كانَتْ تُعقَدُ بعيداً عن أعينِ العامّةِ، فها هو(ابن السيّد البطليوسي) يصفُ إبريقَ الخَمْرةِ وكأسَها عندَما كانَ جليساً للأميرِ عبدِ الرّحمنِ الظّافرِ بن ذي النّون في مجلسِ قصرِهِ، فقد وقعَ بصرُه عليهما، فقال:[25] /البحر الرّجز/

كأنَّما الإبريقُ حين قَرْقَرَا ... قد أمَّ لَثْمَ الكأسِ حين فَغَرَا
وَحْشِيَّةٌ ظلَّتْ تُناغي جُؤْذُرَا ... تُرضعُهُ الدُّرَّ ويرنو حَذِرَا
كأنَّما مَجَّ عقيقاً أحمرَا ... أو فتَّ منْ ريَّاه مِسْكاً أذفرَا

يصفُ الشّاعرُ الخمرَ أوّلاً من حيث اللّونُ والطّبيعةُ، ثم يصوّرُ الإبريقَ وهو يلامسُ الكأسَ، فقد جسَّمَ الإبريقَ عندَما تخيَّلَ أنَّه يقبِّل تلك الكأسَ جاعلاً منه وحشيَّةً تُرضِعُ وَلدَها، فهي تُصدِرُ صوتاً يعبِّرُ عن حنانِها عليه، وهذا الخيالُ فَجَّرَه صوتُ الخمرةِ عندَما تُسكَبُ في الكأسِ، وهذا فيه إشارةٌ إلى اتّساعِ الكأسِ الذي بدأَتْ الخمرةُ تترعْرعُ فيه.

وها هو(ابن زيدون) يصفُ تمثالاً لآدميٍّ نُصِبَ في حمَّامِ قصرِ المُعتمِد، ويُشيد بصناعته، فيقول:[26] /البحر الخفيف/

وسْطَها دُميةٌ يروقُ اجتلاءُ الـ ... كلِّ منها ويفتنُ التبعيضُ
بَشَرٌ ناصِعٌ، خَدٌّ أَسِيْلٌ ... ومُحيًّا طَلْقٌ وطَرْفٌ غَضِيضُ
وقَوَامٌ كما استقامَ قضيبُ الـ ... بانِ إذْ علَّهُ ثراهُ الأريضُ
وابتسامٌ لو أنَّها استغربَت فيـ ... ـهِ أراكَ اتِّساقَه الإغْريضُ

يصفُ الشاعرُ جمالَ التّمثالِ في هذا القصرِ، وقد صُنِعَ على هيئةِ امرأةٍ جميلةٍ، صُنِع من الرّخامِ الأبيضِ النّاعمِ المَلْمَسِ والذي يتّصفُ ببريقِه الذي يسلبُ الأنظار.

إنَّ الشاعرَ الأندلسيَّ في ذاكَ العصرِ كانَ يبحثُ عن الجمالِ ويلتمسُه في كلِّ الأشياءِ التي تحيطُ به، فكانَ كلَّما وجدَ الجمالَ في أيِّ لَفْتةٍ نقشَهُ في شِعرِه، وقد التزمَ الدّقّةَ والجودةَ في الوصفِ، وكأنَّه يضعُنا أمامَ الشّيءِ الموصوفِ، وهذا يثيرُ في النّفسِ البشريّةِ الشعورَ بالإعجابِ والانبهارِ والفخرِ بالحضارةِ الأندلسيَّةِ وعمارتِها في ذاك الوقت.

الاستنتاجات والتَّوصيات:

القيمة الوثائقيّة للشعر في عصر ملوك الطوائف:

لا شكَّ أنَّ النظرةَ إلى الشعرِ تختلفُ بينَ شخصٍ وآخرَ، فالنَّاقدُ ينظرُ إلى النصِّ الشعريِّ بهدفِ إظهارِ القيمةِ الجماليّةِ، في حين ينظرُ المؤرّخُ إلى النصِّ الشعريّ ذاتِه من زاويةٍ أخرى؛ بهدفِ بيانِ القيمةِ الوثائقيّةِ فيه، ولعلّ الشاعرَ والمؤرّخَ وَجْهانِ لعُملةٍ واحدةٍ، إذا وُجِد أحدُهما كانَ الآخرُ مُكمّلاً وداعِماً له في الطّرفِ الآخرِ، معَ النّظرِ في طريقةِ النّظرةِ والتّعاملِ مع الحَدَثِ، حيثُ التّعاملُ المُباشرُ مع الحدثِ من قِبَلِ المؤرّخِ، في حين تلعبُ العواطفُ والأحاسيسُ دوراً كبيراً عندَ الشاعرِ الذي ينظرُ إلى الحدَثِ الشعريِّ بقلبِه ووجدانِه مُتعمّقاً في جزئيّاتِه، فيومئُ من خلالِ ذلك الشعرِ إلى أبعادِه النّفسيّةِ والاجتماعيّةِ، وهو بذلك يكمّلُ عملَ المُؤرّخِ، ويقدّمُ للأجيالِ المُتقادمةِ بعدَه أشياءَ جديدةً سجّلَها في

نصِّه الشعريِّ وقد غفلَ عنها المؤرّخُ، وغابَ عنها التّوثيقُ؛ لأنَّ ما يقدّمُه الشعراءُ في شعرِهم تعبيرٌ عن وجدانِ الشّعوبِ وعواطفِهم، ولا يوجدُ إلّا في لغةِ الشعرِ لغةِ الوجدان.[27]

إنَّ أهمَّ ما يميّزُ القرنَ الخامسَ الهجريّ في الأندلسِ هو تلك النهضةُ المِعماريّةُ المُزدهِرةُ والتي شملَتِ القصورَ والحصونَ والمساجدَ والمدارسَ والحمّاماتِ العامّةَ والخاصّةَ وغيرَها، ولعلَّ الأبرزَ بينَها قصورُ الملُوكِ، وقد حفظَ الشعرُ تلك المعلوماتِ المعماريّةَ التي لها صلةٌ بتشييدِ الحكّامِ لقصورِهم، فكانَ الشعرُ في تلك المرحلةِ وثيقةً تاريخيّةً هامّةً لحركةِ العمرانِ، ودليلاً قويّاً على الصّلةِ المتينةِ بينَ فنِّ الشعرِ والحياةِ العامّة في تلك البيئة.[28]

ولعلّ قصيدة(ابن الحدّاد) التي نظمَها في مدحِ المُعتصمِ بن صمادح تُعدُّ وثيقةً تاريخيّةً هامّةً، فقد تعرّض فيها لوصفِ قصرِه، وقدّمَ تفاصيلَ مِعماريّةً مُفصّلةً وجامعةً لِسِماتِ هذا البناء، وأهمّ مُميّزاتِه، فذكر في أبياته اسم الباني، ووَصف البناءَ الخارجيَّ:[29] /بحر الرّجز/

أنتّ الهوى لكنَّ سُلْوانَ الهوى قصرُ ابنِ مَعْنٍ والحديثُ شُجونُ

ثمّ يصفُ (ابن الحدّاد)علوَّ بناءِ القصرِ، ذلك العلوُّ المُبالَغُ فيه، وقد علتْه قُبَّةٌ مُستديرةُ الشّكلِ مُنخفضةٌ في ارتفاعِها، إلّا أنَّها تعلو رأسَه فيظهرُ وكأنَّه يسمو ويناطحُ السّحابَ، وتظهرُ القيمةُ الوثائقيّةُ للأبياتِ من خلالِ الإشارةِ إلى قوّةِ بناءِ القصرِ ومتانتِه وإتقانِ صُنعِه، فقد بُنيَ على يدِ أمهَرِ المُهندسين والبنّائين، والدّليلُ استلهامُه شخصيّةَ(سِنِمَّار)؛ ليبدو وكأنّه هو بانيه فقال:[30] /البحر الكامل/

أوْ لَوْ بَدَا للرّومِ مَعْجَزُ صُنعِهِ أبدى السُّجودَ إليهَ قُسْطَنْطِيْنُ
رأسٌ برأسِ النُّونِ إلّا أنّه سامٍ فقبّتُه بحيثُ النّونُ
في رأسِهِ سَبَقَ النّعامَ سماؤُهُ من دونِه دمعُ الغَمامِ هَتونُ
قصرٌ تبيَّنَتِ القصورُ قصورَها عنه وفَضْلُ الأفضلينَ يَبِيْنُ
هو جنّةُ الدّنيا تبوَّأَ نُزْلَها مَلِكٌ تمَلَّكَه التُّقَى والدِّينُ
وكأنَّ بانيهِ سِنِمَّارٌ فمَا يَعْدوهُ تحسينٌ ولا تحصينُ

فالشاعر يتواصل مع التاريخ بشعره، ذلك التاريخ الذي يمثّل الماضي التُّراثيّ وهويّة الأمّة الحضاريّة وشخصيّتها ووجودها، ويكون تواصُلُه مع هذا التاريخ لتحقيق القوّة والأصالة والعَظَمة لِمَا يصفه أمام عينَيه وبين يدَيه، وهذا بادٍ من خلال استحضار شخصيّة الباني الماهر سِنِمّار.[31]

وها هو الشاعر (ابن الحدّاد) يشير إلى ذلك المعنى بقوله:[32] / الكامل/

شَمَخَتْ فلا تُحنى سَواريْها لها كلّا ولا تُرمَى بها فَتبينُ

فالبيت السابق وثيقةٌ تاريخيّة تشيرُ إلى مدى قوّةِ القصرِ وشموخِه لطالَما أنّه محمولٌ على أعمدةٍ سواريها متينةٌ في أساسِها، وقويّةٌ تستطيعُ أنْ تحملَ مثلَ هذا القصرِ الضّخمِ.

وفي وثيقةٍ تاريخيّةٍ أخرى يستمرُّ الشاعر (ابن الحدّاد) في وصف معالم القصور، حيث يصفه من الدّاخل مُشيراً إلى الدّقّةِ المُتناهيةِ في الرّسمِ مُنوّهاً إلى كثرةِ الزّخرفةِ النباتيّةِ الكثيرةِ المُستخدمةِ فيه، والتي استوحاها الرسّامون من

الطبيعةِ الأندلسيّةِ التي غلبَ عليها اللّونان الأخضرُ والأحمرُ، إضافةً إلى اللّونِ الأبيضِ، وقد خلا القصرُ من الأزهارِ والورودِ والنّسرينِ الطبيعيّةِ؛ لأنَّ داخلَه بدا برسومِه وكأنّه روضةٌ في حدِّ ذاتِه، فيقول:[33]/البحر الكامل/

فالحُسنُ أجمعَ ما يُريكَ عِيالَهُ ... لا ما أرتْهُ سوالفٌ وعُيونُ
والرَّوضُ ما اشتملَتْ عليهِ شُمُولُه ... لا ما حَوَتْهُ أباطِحٌ وحُزُونُ
عطَّلَ الأزهارَ زاهِرُ حُسْنِهِ ... لا الوردُ مُلتفِتٌ ولا النّسرينُ

ثمَّ يشيرُ (ابن الحدّاد) إلى طريقةِ العمارِ في ذلك العصرِ من خلالِ اعتمادِ الزّخرفةِ الهندسيّةِ، فيقول:[34] /البحر الكامل/

وكأنَّ راسِمَ خَطِّهِ إقليدسٌ ... فَمَوائِلُ الأشكالِ فيه فُنونُ
من دائرٍ ومُكعَّبٍ ومُعيَّنٍ ... ومُحَجَّنٍ تَقويسُه التَّحْجِينُ
فهنالك التَّضعيفُ والتَّثْليثُ والتّـ ... ـربيعُ والتَّسديسُ والتَّثْمينُ
نِسَبٌ حَلَتْ نِسَبُ الغِناءِ لِبعثِها ... طَرَبُ النّفوسِ وسَمْعُها تَعْيِينُ
وكأنَّ طَرْفَي مِسْمَعي وكأنَّهُ ... صوتٌ وشكلُ خطوطِهِ تَلْحِيْنُ

فالجدرانُ والأسقُفُ الداخليّةُ زُيِّنَتْ بأشكالٍ هندسيّةٍ متنوّعةٍ كالدّائرةِ والمُكعَّبِ والمُعيّنِ والمُثلّثِ والمُربّعِ والمُسدّسِ والمُثمّنِ، وقد كانَ انتقالُ الرسّامِين من شكلٍ إلى آخرَ يحملُ براعةً ساحرةً، وقد تخلّل تلك الأشكالَ تربيعاتٌ صغيرةٌ عُرِفَتْ باسمِ المُنَمْنَمَات.

كما سجّل لنا شعرُ القصور وثائقَ تحملُ معَها أسماءَ تلك القصورِ التي أشادَها أمراءُ عصرِ الطوائفِ، وهذا ما ظهرَ على لسانِ(المُقتدِر بن هود) صاحبِ سرقسطةَ الذي ذكرَ اسمَ القصرِ الذي أشادَه فيها، وقد تأنّقَ في بنائِه، ثم ذكرَ اسمَ بعضِ مَجَالسِه، فقال:[35]/البحر الكامل/

قصرُ السُّرورِ ومَجلِسُ الذَّهبِ ... بكما بلَغْتُ نهايَةَ الأَرَبِ
لو لم يَحُزْ مُلْكي خِلافَكُما ... كانَتْ لديَّ كِفايةُ الطَّلَبِ

فهو يذكر لنا كوثيقةٍ تاريخيّةٍ اسمَ قصر(السُّرور)و(مجلس الذّهب) الذي يُعدُّ من أفخمِ مجالسِه، فقد زُيّنتْ جدرانُه بالنّقوش والتُّحفِ الذّهبيّة، لهذا سُمّيَ(مجلس الذَّهب).[36]

لقد كانَ شعرُ القصورِ خيرَ مُوثّقٍ لفنّ عمارةِ القصورِ في عصرِ ملوكِ الطوائفِ، فالمُهندِسُ يخطّطُ، والبنّاءُ يبني، والفنّان يزخرفُ، والشاعرُ يصفُ ويوثّقُ ويحيِي القصورَ التي اندثرَتْ وأصبحَتْ أطلالاً.

ولم يكن الشّعرُ الذي وصفَ القصورَ مُجرّدَ وثيقةٍ تاريخيّةٍ تختصُّ بالعمرانِ وحالتِه، بل كان هذا الشعرُ أيضاً شاهدَ عَيانٍ على بعضِ الأحداثِ السياسيّةِ؛ لأنَّ جِلَّ الأحداثِ السياسيّة التي حدثَتْ في القرنِ الخامس الهجريّ حدثَتْ في القصورِ، فها هو (ابن درّاج) يشيرُ إلى البَيعةِ التي شهِدَها قصرُ الحاكم للأمير منذر بن يحيى حيث وصفُ ابن درّاج تلك البيعةَ في قصر قرطبةَ قصرِ الحكمِ حتّى وصلَ صدى تلك البيعةِ إلى خراسان، فقال:[37] /البحر البسيط/

ودولةٌ سبقَتْ آمالَنا كَرَماً ... كأنَّ ما قد تمنَّيْنا تمنَّانا
ودعوةٌ أعلنَ الدّاعي فأسمعَها ... من قصرِ قرطبةٍ أقصى خراسانا
وبيعةٌ عَرَفَ الإسلامُ آيتَها ... فلم يَخِرُّوا لها صُمًّاً وعُميانا

كما كانَ شعرُ القصور وثيقةً تاريخيّةً وثّقتْ بعضَ الحروب الدّاخليّة بين حكّام عصرِ الطوائف في سبيلِ توسيعِ رقعةِ المُلكِ على حسابِ الممالكِ الأخرى، وانعكاسِ هذا التوسُّعِ على قصرِ الحاكمِ المَخلوعِ ودولتِه الزّائلةِ، ومن هذا القبيلِ استيلاءُ المُعتمِد بن عبّاد على قرطبةَ سنة/462هـ/، فقد انتزعها من بني جهور وأنهى حُكمَهم فيها، وضمَّها إلى المملكةِ العبّاديّة بإشبيلية، وقد أمِلَ أنْ يوحّدَ الأندلسَ العربيّةَ الإسلاميّةَ تحت رايتِه، ويقيمَ في البلادِ دولةَ بني العبّاد العُظمَى[38]، فقال(المُعتمد بن عبّاد) في ذلك:[39] /البحر البسيط/

مَنْ للمُلوكِ بشأنِ الأَصْيَدِ البَطَلِ هيهاتَ جاءَتْكم مَهديَّةُ الدُّوَلِ
خطبْتُ قُرطبةَ الحسناءَ إذْ منعَتْ مَنْ جاءَ يخطبُها بالبِيضِ والأسَلِ
وكم غَدَتْ عاطِلاً حتّى عَرَضْتُ لها فأصبحَتْ في سُرَى الحُلِيِّ والحُلَلِ
عِرسُ المُلوكِ لنا في قصرِها عُرُسٌ كلُّ الملوكِ به في مَأْتَمِ الوَجَلِ
فَراقِبوا عن قريبٍ لا أبا لكمُ هُجومَ لَيثٍ بِدرعِ البأسِ مُشتمِلِ

فالشعرُ في هذا الموقفِ يؤرّخُ لنا انتصارَ الحاكمِ ومشاركتَه الفرحَ بالاستيلاءِ على قرطبةَ، ومن هذه الأبياتِ نستنتجُ أنَّ شعرَ القصورِ كان مُواكِباً للأحداثِ السّياسيّةِ المُتعلّقةِ بقوّةِ الدّولةِ الحاكمةِ وعزّها وحتّى زوالِها.

الخاتمة:

كانَ شعرُ القصورِ قد وضّحَ الكثيرَ من معالمِ الحياةِ ومجالاتِها العمرانيّة والتاريخيّة والصّناعيّة، وبهذا يكونُ قد واكبَ مظاهرَ الحياةِ المُختلفةِ ودلَّ عليها، وأعطى تفاصيلَ دقيقةً أعانَتِ الكثيرين مّمن أتَوا فيما بعد على فَهْمِ(حياة ملوك الطوائف)، فكانَ الشعرُ خيرَ مُوثّقٍ للحياةِ في تلك الفترةِ؛ لأنّه أمدَّ التّاريخَ بانطباعٍ عن الحياةِ الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والعمرانيّة والسياسيّة في ذلك العصرِ، ولا بدّ من الإشارة إلى أنَّ شعراءَ الأندلسِ بأشعارِهم هذه كانوا مُقلّدين لشعراءِ المَشرقِ في وصف موجودات القصور، فهم ليسوا السبَّاقين في هذا المِضمار، لكنَّهم تميَّزوا عن السّابقين من الشعراء بأنَّ وَصْفَهم كانَ أكثرَ دقّةً وجمالاً؛ كونُهم لم يتركوا شيئاً إلَّا وصفوه؛ لأنَّها أشياءُ تُدلِّل على تقدُّمِهم في مجالِ الحضارةِ الإنسانيّةِ، فكَمُلَ تذوُّقُهم لجمالِ بلادِهم، وازدادوا حُبّاً لها، وتعلُّقاً بها.

لقد كانَ شعرُ وَصفِ القصورِ مِرآةً عكسَتْ للمُتلقّي أحداثاً ربَّما تفاوتَتْ سَلباً وإيجاباً بالنسبة لِمَا حصلَ فعلاً، لكنّها في النتيجةِ قدّمَتْ معلوماتٍ وثائقيّةً ربَّما غفلَتْ عنها الكثيرُ من المصادرِ التاريخيّة.

الهوامش:

[1] يُنظَر: البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، سعد إسماعيل شلبي، ص233–235.

[2] يُنظَر: نفح الطّيب في غصن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن المقري التّلمساني، 244/4.

[3] يُنظَر: المصدر السابق نفسه، 382/2.

[4] طه، الآية12.

[5] ديوان ابن الحدّاد، جمع وتحقيق: د. يوسف علي الطويل، ص274.

[6] يُنظَر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، ص342.

[7] ديوان ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي (ت463هـ)، ص166.

[8] ديوان ابن دراج، أبو عمر محمد بن العاصي بن أحمد القسطلي (ت421هـ)، ص36.

[9] معاقلَ: اسم ممنوع من الصّرف، صرفَه الشاعر للضرورة الشعريّة.

[10] يُنظَر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تأليف: أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني، ص416.

[11] يُنظَر: المصدر السابق نفسه، 2/ ص425.

[12] ينظر: المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتّى نهاية الحكم العربي، محمد عويّد محمد ساير الطربولي، ص215.

[13] ديوان ابن زيدون، ص117– 118.

[14] يُنظَر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف (ملامحه العامّة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقيّة) هنري بيرس، ص149.

[15] ديوان ابن زيدون، ص117_118.

[16] يُنظَر: الذخيرة، 1/ ص113.

[17] يُنظَر: المصدر السابق نفسه، ص388/2.

[18] ديوان أبي بكر بن الملح، محمد بن إسحاق اللّخمي الإشبيلي، ص23.

[19] الديوان السابق نفسه، ص24.

[20] يُنظَر: وصف القصور في الشعر العبَّاسي، ثروت أحمد محمود وَهدان، ص57.

[21] يُنظَر: المصدر السابق نفسه، ص57.

[22] ديوان الجزار السّرقسطي، أبو بكر يحيى بن محمد بن عيس، ص37.

[23] الغاشية، الآية15.

[24] يُنظَر: الحلّة السيراء، ابن الأبّار القضاعي، تحقيق: حسين مؤنس، 2/ص164.

[25] يُنظَر: نفح الطيب، 1/ ص650.

[26] ديوان ابن زيدون، ص118.

[27] يُنظَر: صدى سقوط غرناطة في الشعر الأندلسي، جمعة شيخة، مجلّة دراسات أندلسيّة، العدد7/ ص74.

[28] يُنظَر: نفح الطيب، 1/ ص670.

[29] ديوان ابن الحدّاد، ص269.

[30] الديوان السابق نفسه، ص275.

[31] يُنظَر: المصادر التراثيّة في الشعر الفلسطيني، شوقي أحمد أبو زيد، ص187.

[32] ديوان ابن الحدّاد، ص72.

[33] الديوان السابق نفسه، ص270.

[34] الديوان السابق نفسه، ص273.

[35] يُنظَر: نفح الطيب، 1/ص442.

[36] يُنظَر: دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية والدولة العامرية)، محمد عبد الله عنان، ق2، ص283.

[37] ديوان ابن درّاج، ص132.

[38] يُنظَر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المُراكشي، 3/ص259.

[39] ديوان المُعتمِد بن عبّاد، جمعه وحققه: أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، ص105–106.

المصادر والمراجع:

1- البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).

2- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المُراكشي (ت712هـ)، تحقيق: ج. س. كولان، وأ. ليفي بروفسنال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3.

3- الحلّة السّيراء، ابن الأبّار القضاعي، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، ط2، القاهرة عام/1985م/.

4- دولة الإسلام في الأندلس(الخلافة الأموية والدولة العامرية)، محمد عبد الله عنان، العصر الأول، ق2، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4،/1417هـ- 1997م/.

5- ديوان ابن الحدّاد(480هـ): جمع و تحقيق: د. يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 /1410هـ-1990/م.

6- ديوان ابن درّاج، أبو عمر محمد بن العاصي بن أحمد القسطلي (ت421هـ)، ديوانه، تحقيق: محمد علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي، ط1- دمشق، عام/1961م/.

7- ديوان ابن زيدون، -أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي (ت463هـ)، ديوانه- مع دراسة تفصيلية عن الشاعر: (حياته، غرامه، فنونه)- الشركة اللّبنانية للكتاب- بيروت- لبنان.

8- ديوان أبي بكر بن الملح، محمد بن إسحاق اللّخمي الإشبيلي، (كان حيّاً حتّى سنة500هـ)، جمع و دراسة: عبد المنعم عزيز النّصر.

9- ديوان الجزّار السّرقسطي، أبو بكر يحيى بن محمد بن عيس،(ت: في النّصف الأول من القرن الخامس الهجري)، تحقيق: سالم شريف العربي، دار شموع الثّقافة، ط1، ليبيا/2003م/.

10- ديوان المُعتمِد بن عبّاد، جمعه وحققه، أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية بالقاهرة، /1951م/.

11- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تأليف أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت542هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1،/1399هـ/.

12- الشعر الأندلسي في عصر الطوائف – ملامحه العامّة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقيّة – هنري بيرس.

13- صدى سقوط غرناطة في الشعر الأندلسي، جمعة شيخة، مجلّة دراسات أندلسيّة، العدد7/ عام/1992م/.
14- الصورة الفنّيّة في التّراث النقديّ و البلاغي، جابر عصفور، دار المعارف- القاهرة عام/1974م/.
15- المصادر التراثيّة في الشعر الفلسطيني، شوقي أحمد أبو زيد، عمان/1994م-1995م/.
16- المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتّى نهاية الحكم العربي، محمد عويّد محمد ساير الطربولي، مكتبة الثقافة الدينيّة، ط1، القاهرة،/2005م/.
17- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقري التّلمساني(ت:1041هـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، ط1، /1968م/، طبعة جديدة، /1997هـ/، بيروت، لبنان، (1-8).
18- وصف القصور في الشعر العبَّاسي، ثروت أحمد محمود وَهدان، مجلّة جامعة النجاح، نابلس- فلسطين/2003م/.